

شعر ابن الخياط

لم يقع شعراء عصر من العصور في حيرةٍ وقوع شعراء عصر ابن الخياط الدمشقي في مثل هذه الحيرة ، فقد جاء في زمن استوى الشعر فيه واختر ، جاء في منتصف القرن الخامس ومات في أوائل القرن السادس ، بعد ان ظهرت في الأدب لطائف كشاجم وقلائد المتنبي ومدائح البحتري ومراثي أبي تمام وخصائص غيرهم من شعراء كبار لم يتركوا في المجال الذي جالوا فيه قولاً لقائل ، حتى ان شعراء العصر الرابع وصفوا أموراً في حياة الناس ومجتمعاتهم لا تخطر ببال أحديهم ، دع تغنيهم بالطبيعة ، حيوانها ونباتها ، وتصويرهم لملاعب القوم وملاهيهم .

فلم يغادر شعراء ذلك العصر من مترددين ، فلماذا وقع الشعراء من بعد عصر المعري ومييار والشريف الرضي وكشاجم وأبي فراس والبحتري وغيرهم في حيرة من أمرهم ، أينجبون على أذبال شعراء بلغوا من جودة القول المبالغ ، أم يبتدعون مذاهب في الشعر لم يفتن اليها من تقدمهم .

وواقع الأمر أنهم لم يبتدعوا شيئاً وانما حاولوا اللحاق بالذين قبلهم حتى يكونوا وياهم سلسلة متصلة الحلقات ، فلننظر في الفنون التي خاض فيها شاعرنا الدمشقي ابن الخياط ، لقد مدح في شعره ورثى وتغنى بالطبيعة ووصف فكانت فنون شعره من حيث موضوعاتها مماثلة لفنون الشعراء من قبله .

مدح أمراء وأشرفاً وقضاة ، ولا يقنع في خلد أحد ان المدح أمر يسير ، فان المادح يتصور بطلاً من الابطال أو كريماً من الكرماء ، ثم يجمع له الصفات البارزة التي تجعله قدوة للناس ، ثم ينتخب لهذه الصفات بياناً يناسبها ، فاذا كانت الصفات التي خلقها للمدوح صفات عامة تخلق لكل مدوح ، واذا كان البيان الذي يصور هذه الصفات غير رفيع القدر كان المدح سخيفاً ، وما خلد المتنبي في بعض أماديجه إلا لأنه هياً لسيف الدولة صفات لا تسهل تبيثها لغيره من الملوك ، وانتخب لهذه الصفات بياناً جل قدره ، فلا يستطيع كل شاعر ان يقول :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
 ولا يستطيع كل ملك أو كل أمير أن يقف مثل وقفة سيف الدولة .
 فيل كان مدح ابن الخياط من هذا النمط ، فمن قوله في مدح الأمير مجد الدين
 غضب الدولة في قصيدته المشهورة : خذا من صبا نجد . . .
 اذا ما هنزت الدهر باسمك مادحاً تثني تثني ناضر العود رطب
 لا شك في ان هذا البيان سامي الشأن ، ولكن اذا تتبعنا قول الشعراء من قبل ابن
 الخياط في هذا الباب ، مثل قول المتنبي في سيف الدولة :
 اذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه في أعمادها تتبسم
 علنا ان ابن الخياط لم يخترع في أماديجه شيئاً فليس في هذه القصيدة صور حديثة ،
 الا أن صورها بارعة ، أثر فيها ميراث العصور من قبلها فظهرت عليها آثار هذا
 الميراث الخصب .

فلنتقل من هذا الفن ، فن المدح ، الى فن الرثاء ، رثى ابن الأمير غضب الدولة
 وقد قتل في البقاع ، فمن قوله وهو يخاطب المرثي :

عفت الدنية والمنية دونها فشرعت في حد الرماح الشرع
 ولو انك اخترت الامان وجدته اني وخذ الليث ليس بأضرع
 من كان مثلك لم يميت الآلتي بين الصوارم والقنا المتقطع !

فقد يجد الناظر في هذا الشعر آثار أبي تمام في مرثيه ، فخالة ابن الخياط في
 رثائه مثل حالته في مدحه ، فهو يرد مورداً لا ينضب معينه فجرته له العصور الفارطة .

وما يقال في أماديجه ومرثيه يقال في غزله ، ومن أياته المشهورة في هذا المعنى قوله :

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه فقد كاد رباها يطير بليه
 واياك اذاك النسيم فانه اذا هب كان الوجد ايسر خطبه
 خليلي لو أحببتا لعلمتا محل الهوى من مغرم القلب صبه
 تذكروا الذكرى تشوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
 غرام على ياس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه

فغاية القول ان ابن الخياط بارع في التقليد .

وكما ورث طائفةً من خصائص أكابر الشعراء في الأماديح والمراثي والغزل
فكذلك ورث طائفةً من خصائص العصر الرابع والمصور التي قبله في التغني بالطبيعة
ورقة الوصف، فمن قوله في وصف محل فيه بركة وأنابيب وفوار وشاذروان:

بغني لنا طرباً ماؤها وقامت أنابيبها بترقص
يربك الجواهر تقييبها وهن طواف بها غوص
ومستضحك ذهبي الشفاه بما جزعوا منه أو فصوا
منيف يخر يذوب اللجين على ذهب سبكه المخلص
تري الطير والوحش من جانبيه يشكو البطين بها الأخص
دوانٍ روانٍ فلا هذه تراع ولا هذه تقنص
تري آمناً فيه سرب الظباء والذيب ما بينها يرعص!

فلم تنج هذه الايات وأمثالها من روح البحتري في الوصف، فمن هذا كله
بتبين لنا ان ابن الخياط لا يكاد ينفك من آثار العصور السابقة في شعره،
الآ انه حن الذوق في الاقتباس عن تلك العصور، حتى يخيل الينا انه كان جزءاً
متماً للعصر الرابع والذي قبله، فيكاد يكون واحداً من شعراء تلك العصور!

شفيق جبري

—•••••—